أمراض التعرف

كنت أركب ترام المترو عائداً إلى مصر الجديدة ذات يوم ، وجلس فى المقعد أمامى شخص لم أتمالك من تحيته ، لأنه فضلا عن زمالته فى المدرسة الثانوية فهو صديقى ، وهو يعمل محامياً مشهوراً. ولم يرد هذا الشخص التحية بأحسن منها أو بمثلها ، ولكنه ردها رد متجاهل كأنه لا يعرفنى . فعجبت وتأملته طويلا ، إنه هو هو هيئة وقواماً وشارباً ، فقلت فى نفسى لعله شخص قريب الشبه منه ، ولكنى كلما نظرت إليه لم أجد بداً من الجزم بأنه صديقى الذى أعرفه ، وأنكرت إنكاره معرفتى ، وأردت التأكد من هذه المسألة فقلت له ألست فلاناً ؟ فأجاب كلا ، فقلت له : ألست محامياً ؟ فأجاب إنه موظف بإحدى الوزارات .

وكثيراً ما يحدث من الخطأ فى التعرف حوادث غير محمودة ، فهنالك أشخاص ترتفع بينهم الكلفة إلى حد التبسط فإذا التقى أحدهم بصاحبه احتضنه وقبله ، أو إلى حد الهذر فيضربه أو يشتمه مثلا . فانظر حرج الموقف حين يفاجأ شخص بمن يلكمه أو يزغده . وروى لى صديق

هذه النادرة العجيبة قال : كنت أسهر مع بعض أصدقائى فى مقهى حتى منتصف الليل ، ولأمر ما أخرجت مفتاح منزلى فأخذه منى أحدهم ونسيت أن أسترده منه ، ثم انصرفنا ، وتحسست المفتاح فلم أجده فعرفت أنه مع صاحبى الذى انصرف وكان أعزب زرت منزله مرة واحدة قبل ذلك بعام . فرجعت مع صاحبى ناحية ذلك المنزل ، ولكننا دخلنا المنزل المجاور الذى كان يشبهه ، وصعدنا الدور الثالث ونقرنا على الباب ، فخرجت لنا خادمة صغيرة ، فقلنا لها : « هل سيدك محمد أفندى موجود ؟ » فقالت : « نعم تفضلوا » فدخلنا إلى صالة صغيرة فيها مائدة عليها طعام ، ولم تكن بيننا وبين صديقنا كلفة ، ورأينا على المائدة طبقاً فأكلنا من الطعام الذى فيه ، ولما غاب صديقنا عن الحضور صحنا به وهممنا أن ندخل عليه حجرة النوم ، وإذا بشخص آخر يخرج وزوجته تنادى به من الداخل أن يرى رأيه فى هؤلاء الأصدقاء الذين يطرقون بابه بعد منتصف الليل . وأصر الرجل أن يصحبنا إلى قسم البوليس للتهجم عليه .

وقد تدخل بيتاً فتحس كأنك تعرف هذا البيت وتعرف حجراته وتعرف أثاثه ، وهذا هو « التذكر العكسى » Paramnesia ، وينشأ فى الغالب من « التشابه » بين المكان

الذى تعرفه وبين المكان الذى تراه ، وينشأ عن ذلك الشعور « بالألفة » .

والتعرف مكمل للتذكر ولا يعده العلماء مرحلة أساسية منه : إذا كانت مراحل الذاكرة خمس ، الحفظ والوعى والاسترجاع ثم التعرف والتحديد . ولنضرب مثلا يبين هذه المراحل . طالب فى المدارس الابتدائية يعلمه المدرس أن دمشق عاصمة سوريا ، فيحفظ الطالب هذه الحقيقة ، وتستقر فى ذهنه وتظل باقية فى صفحة عقله دون أن ينساها ، وهذا هو الوعى . وعند الامتحان يجيب عن السؤال الآتى : ما عاصمة سوريا ؟ إنها دمشق ، وهذا هو الاسترجاع . أما إذا جاء السؤال على النحو الآتى : هل عاصمة سوريا بغداد أو دمشق أو بيروت ، فأجاب إنها دمشق ، فهذا تعرف ، لأنه لا يسترجع اللفظ بل يتعرف عليه . أما التحديد فهو وضع ما تتذكره فى المكان أو الزمان ، والتحديد مكمل أيضاً للذاكرة .

وقد تعقد بعض الامتحانات المدرسية على أساس التعرف لا الاسترجاع كما بينا فى السؤال السابق ، تسهيلا للطلبة .

وأساس التعرف الحفظ السابق ، لأنك تستعرض ذكرياتك وتطبقها على هذا الشىء الذى تراه أو تسمعه . فإذا حدث خطأ فى التعرف كالأمثلة التى ضربناها ، فعلة

ذلك ترجع إلى أمور كثيرة ، إما من الحفظ ، وإما من عوامل أخرى سوف نذكرها . وقبل بيان هذه العوامل يجدر تمييز أنواع التعرف ، وهى ترتد إلى نوعين أساسيين ، تعرف الألفة ، وتعرف الحكم ، فالأول تعرف وجدانى ، والثانى عقلى .

ومن المشاهد أن الإنسان ، والحيوان كذلك ، يحس بإزاء الأشياء التى تحيطه فى البيئة التى يوجد فيها بأحد شعورين إما ائتلاف ، وإما نفور وغرابة . وكثيراً ما يكون هذا الشعور غامضاً لا يستبين فيه المرء أى ذكرى قديمة واضحة ، ويحدث ذلك عندما نسير فى الشوارع التى ألفناها والأماكن التى تعودنا الاختلاف إليها . ومعظم الحيوانات تجد لذه فى تمضية الوقت فى الأماكن المألوفة لها ، ومرجع ذلك إلى شعورها « بالأمن » وابتعادها عن الخطر الذى تريد أن تتجنبه . والحق أن الخوف من أهم العوامل فى النسيان ، كما أنه من العوامل التى تبعث على الابتعاد عن الأشياء وتجنبها . ونسيانها أحد مظاهر الابتعاد عنها . وإذا لاحظنا الطفل الصغير الذى يبلغ من العمر ثلاثة أشهر أو أربعة نجد أنه يتميز بهذا الشعور ، شعور الألفة الذى يجلب له الأمن والاطمئنان ، ولذلك يقبل على أمه أو أبيه أو خادمته ، ويشيح بوجهه عن

الغرباء ويفزع منهم . وليس ذلك تعرفاً عن حكم عقلى ، بل عن الصلة الآلية التى تشبه الأفعال الشرطية . ومن الألعاب التى يسر لها الأطفال كثيراً لعبة « الاختفاء » حين تخبئ منه لعبته أو تخفى عنه الشخص الذى يحبه ، فيبحث عنه ويسر عند عودته ، وتنبسط له أسارير وجهه .

ومن الأمور التى تعد فى باب العجائب تعرف الكلاب على أصحابها بحاسة الشم . وتستطيع الكلاب البوليسية أن تتعرف على المجرمين إذا شمت آثار الجريمة. وهناك أبحاث قانونية كثيرة فى هذا الموضوع ، ولكن جمهرة المحاكم لا تأخذ بهذا الدليل ، ولا تجعله قاطعاً إذ قد يخطئ الكلب فى تعرفه . وإنما يستطيع الكلب أن يتعرف لأنه يحتفظ فى ذهنه بالصورة الشمية ويطبقها على الشخص الذى يجد فيه هذه الرائحة نفسها . ولكننا لا نملك القول بأن الكلب يميز الماضى ويعرفه ويطبق الموجود فى الحاضر على المحفوظ فى الماضى ، لأن هذه العملية هى تعرف الحكم الذى يختص الإنسان به .

فالشعور بالألفة شعور عام لا يغوص فيه صاحبه مع الماضى ، وهو يوازى الذاكرة الآلية ، أو ذاكرة العادة ، ويتصل أغلب الأمر بالأشياء والأماكن لا بالمعانى والألفاظ. وقد قيل إن التعرف على الأشياء هو التعامل وإياها ، وهذه

نظرية السلوكيين فى علم النفس . فإذا نظرتَ إلى فنجان عرفتَ أنه صالح أن يشرب فيه، وإلى قلم أن يكتب به، وهكذا .

أما تعرف الحكم فيحتاج إلى نظر فى الماضى ، على حين يستعرض تعرف الألفة الماضى . فنحن فى حياتنا اليومية نتعامل مع أشياء كثيرة يكفى أن ننظر إليها حتى نقبل عليها أو ندبر عنها دون الرجوع إلى الصور الذهنية الماضية عنها . روى عن مرضى يعرفون كيف يصفون الأشياء إذا ذكرت أسماؤها ولا يتعرفون عليها إذا شاهدوها . وروى عن شخص أصبح يجهل الاتجاه فى شوارع بلدته التى نشأ فيها ، ومع ذلك فهو يعرف أن هذه الطرق شوارع وأن الأبنية الموجودة على جوانبها بيوت للسكنى . وأصبح لا يعرف زوجته وأولاده، ولكنه مع ذلك يعرف أن هذه امرأة وهؤلاء أطفال . من أجل ذلك أنكر برجسون بعد رواية هذه الأمثلة أنها تدل على « عمى نفسانى » أو على فقدان الذاكرة ، ولكنها دليل فقط على نوع من أنواع أمراض التعرف يرجع إلى اختلال العادة الآلية . ذلك أن الإنسان يتعرف على المدينة بأن يسير فى طرقاتها مرة بعد أخرى ، ثم يصبح سيره فى شوارعها آلياً ، ومن هنا ينشأ الشعور بالألفة .

وانظر إلى الأحوال التى نضطر فيها إلى الحكم عند التعرف ، أى استحضار الماضى وتطبيقه على الحاضر . عندما تضبط مسروقات أو يعثر رجل البوليس على طفل ضل الطريق ، ويذهب أصحاب المسروقات أو أهل الطفل للتعرف على هذه المسروقات أو هذا الطفل ، يرجع المرء إلى الذاكرة ، وبخاصة لأن رجال البوليس لا يكتفون بمجرد التعرف ، بل يطالبون بذكر علامات مميزة .

كانت إحدى الفتيات تلعب فى حديقة عامة مع إخوتها فوقعت منها ساعة يد ، وعثر عليها أحد الصبية ممن كانوا يلعبون فى الحديقة ، ولم يكن يعرف صاحبتها ، ولكنه ظن أنها تكون لإحدى هذه الفتيات ، فذهب إلى منزلهن يعرض الساعة ، ولم تكن صاحبتها موجودة فى ذلك الوقت بل أختها الصغيرة التى تبلغ العاشرة من عمرها ، فلما سألها عن الساعة وعرضها عليها قالت إنها ليست ساعة أختها لأن ساعتها مربعة وهذه مستديرة ، لولا أن سمعت أمهن الحديث فتدخلت فى الأمر وعرفت الساعة . أما السبب الذى من أجله أخطأت الأخت الصغيرة فى التعرف على الساعة ، فهو أنها كانت تطمع أن يكون لها واحدة مثل أختها ، فهى تنفس عليها وتحسدها وتود ألا يكون لها ساعة حتى تحرم منها كما أنها محرومة كذلك .

فهذا نسيان يرجع إلى تخيل صورة تخالف الصورة القديمة .

ويعلل برجسون أمراض التعرف بأمرين : الأول نسيان الصور الذهنية الماضية ، والثانى انحلال الرابطة التى تربط بين تلك الصور وبين غيرها . والواقع أن الذكريات الماضية لا تكون مفردة منعزلة بل يرتبط بعضها ببعضها الآخر ، إلى حد أن الفكرة التى تتكون عندنا عن شىء من الأشياء تتم شيئاً فشيئاً بعد إضافة صور عدة عن الشىء الواحد . فأنت تعرف زيداً من الناس لأنك رأيته فى أوضاع مختلفة وفى هيئات عدة ، فهو مرة جالس وأخرى قائم ، وتارة لابس وتارة غير لابس ، وفى حين باسم وفى حير آخر عابس ، ومع اختلاف هذه الهيئات كلها تعرفه وتميزه دون غيره . فأنت حين تتذكره ، أو حين تتعرف عليه ، لا تستحضر فى ذهنك صورة ماضية عنه بالذات . وكذلك الحال حين تنظر إلى شجرة فتقول هذه شجرة وحين تنظر إلى قطة فتقول هذه قطة وليست كلباً . وليس معنى ذلك أنك تستحضر فى ذهنك صورة قطة معينة بالذات أو صورة شجرة بالذات .

والذى يعين الإنسان على إدراك هذه المعانى الكلية أنه يخلع عليها ألفاظاً تتركز فيها ، على خلاف الحيوان غير الناطق.

واللفظة وعاء أو لباس للمعنى ، ولها شخصية مستمدة من شخصية الأشياء التى تدل عليها . ولكن الألفاظ أصوات ليست مادية كهذه الشجرة أو هذه القطة أو هذا الكلب . ومع ذلك فقد ظن قوم أن الألفاظ المنطوقة مادية ؛ وأنها تحضر فى صفحة الذهن كما تسجل الأصوات على صفحة الأسطوانة ثم تسمع بعد ذلك فى الجراموفون . وهذا تشبيه قديم ساد فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولكن برجسون وغيره اعترضوا عليه اعتراضات كثيرة ، فقالوا : إن كانت الألفاظ مسجلة على هذا النحو فلماذا تسقط لفظة واحدة من بين العبارة المحفوظة ، ولماذا تنسى لحظة ثم تظهر لحظة أخرى .

وكما يتعرف الإنسان على الأشياء المحسوسة وعلى الأماكن التى تحيطه فى البيئة التى يوجد فيها ، كذلك يتعرف على الألفاظ والمعانى التى تعرض عليه . كنت فى مجلس وجاء ذكر هذه الآية على سبيل الاستشهاد «ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » فقلت هذا حديث شريف ، فقال صاحبى بل إنه آية قرآنية ، وأصر على رأيه ، وأصررت على رأيى . فلما عدت إلى منزلى راجعت المسألة فاتضح لى فساد تعرفى ، ووجدت أنه آية وليس حديثاً . وأخذت أحلل نفسى كيف

وقعت فى هذا النسيان ، فرأيت أنه يرجع إلى تخليط فى الحكم بين خصائص الأسلوب القرآنى وأسلوب الحديث النبوى . ومعظم أخطاء التعرف ناشئة من الخطأ فى الحكم مع ضعف الحفظ .

ولا ريب فى أن سوء الاكتساب وضعف الحفظ أول أسباب الخطأ فى التعرف . مثال ذلك أنى أذهب بين حين وآخر إلى الريف ، والتفت إلى هذه البيئة الجديدة فأرى فيها مجارى للمياه يسمون بعضها ترعاً وبعضها الآخر مصارف . فالترعة مجرى من الماء العذب الذى يستمد أصله من النيل وهى التى تروى الأرض . والمصرف مجرى من الماء يتسرب إليه الماء من الأرض بعد ريها ، وكلاهما مجرى من الماء . وقد يكون أحدهما مجاوراً للآخر ، كل ما فى الأمر أن المصرف أعمق من الترعة ، وأن جانب المصرف يبدو عليه بياض من آثار الملح . ومع ذلك فإنى لا أزال أخلط بينهما على حين أن الفلاح يتعرف عليهما بكل بساطة . فهذا الخطأ ناشئ عن ضعف العلم بحقيقة الترعة والمصرف . ويشبه موقفى من شئون الريف على وجه العموم موقف خادمة من الريف طلبت منها أن تحضر الكتاب الموضوع على المكتب فأحضرت بدلا منه كراسة . الحق ليس التمييز بين الترعة

والمصرف أمراً عسيراً يصعب اكتسابه ، ولكن المسألة ترجع إلى الميل والاهتمام أو إلى ما يذكره برجسون وهو "الانتباه" ، وعنده أن الاسترجاع ، وكذلك التعرف دورة تبدأ من الانتباه ثم الإدراك ثم التصور ثم الحفظ ثم الاسترجاع ثم التعرف .

وعقد ريبو فى كتابه «أمراض الذاكرة »[1] فصلا عن التعرف والتحديد . وهو يتوسع فى معنى التعرف ويجعله يشمل التحديد فى الزمان ، أى أن هذه الحادثة مثلا وقعت لنا فى وقت معين وفى مكان معين . والسبيل إلى ذلك أن العقل يتخذ من بعض الحوادث « نقط ارتكاز » ، يحدد الحوادث الأخرى بالنسبة لها . وهذا ما يفعله أولئك الذين يحفظون التاريخ ، بل التاريخ نفسه يعتمد على نقطة ارتكاز ، مثل التاريخ الميلادى يبدأ من ميلاد المسيح ، والهجرى من هجرة الرسول . ويتخذ العامة من بعض الحوادث المشهورة بدءاً للتاريخ ، مثل حرب عرابى ، أو الثورة المصرية وهكذا . وهذا ما يفعله كل فرد منا بالنسبة لحوادثه الخاصة ، فهو يتخذ من وفاة أبيه أو زواجه أو بدء عمله نقط ارتكاز تكون أشبه بالدعائم التى تقوم القنطرة عليها ، وترتبط بها سائر الحوادث الأخرى .

---

(١) انظر كتابه ص ٣٢ وما بعدها

هذه النقط هى التى تسهل عملية التحديد فى الزمان . ومن الواضح أن هذه الحوادث التى نطلق عليها اسم نقط الارتكاز تكون أبعد عن النسيان ، لأنها تصبح آلية لكثرة التكرار والاستعمال . أما الحوادث الأخرى المرتبطة بها فإنها تكون عرضة للنسيان وبخاصة كلما ضعفت الصلة بها .

وهنا يوحد ريبو بين التحديد والتعرف ، ويذهب إلى أن التعرف ناشئ عن غموض التحديد . فأنت تقول إذا رأيت وجه شخص : « يبدو أنى رأيت هذا الوجه من قبل ؟ » . ثم تبحث عن الزمان الذى رأيته فيه ، والمكان الذى التقيت به ، فتعجز عن ذلك . فصعوبة التعرف راجعة إلى العجز فى التحديد .

وذكر ريبو من أسباب هذا العجز المرض والشيخوخة ، وضرب مثلا بمشاهير من الرجال لم يتعرفوا على أعمالهم الشخصية . فهذا لينيه Linné كان يلهو فى أواخر حياته بقراءة تآليفه ، حتى إذا استغرق فى قراءتها ، نسى أنه مؤلفها وصاح « ما أبدع هذا ! ليتنى كنت الكاتب » . ولما طعن والتر سكوت فى السن أصبح عرضة لهذا الضرب من النسيان ، فقد أنشدوا له ذات مرة إحدى قصائده فأعجبته وسأل عن ناظمها ، وكانت إحدى مقطوعات قصيدته « القرصان » . وتروى سكرتيرته بلانتين

Ballantyne التى لزمته وكتبت سيرة حياته ؛ كيف أملى عليها قصة إيفانهو Ivanhoe وهو مريض طريح الفراش ، ثم طبع الكتاب قبل أن يبرح سكوت السرير ، ولم يذكر من القصة شيئاً اللهم إلا فكرتها التى نبتت فى ذهنه قبل المرض .

ويروى أن الشاعر روجرز عندما بلغ التسعين من العمر كان يتنزه فى عربة مع سيدة سألته عن سيدة أخرى لم يستطع أن يتذكرها . فأوقف العربة ونادى على الخادم وقال له : هل أعرف السيدة فلانة ؟ فأجاب الخادم بالإيجاب . ومرت عليهما لحظة مؤلمة ، ثم أخذ يدها بين يديه وقال لها : لا تقلقى يا عزيزتى ، لم أصل بعد إلى الحد الذى أوقف فيه العربة لأسأل هل أعرفك أو لا .

وعندما نحس بالعجز عن التعرف ، كأن نقابل شخصاً وننسى وجهه أو اسمه ، نعود بالذاكرة إلى الوراء نفتش أين رأيناه أول مرة ، فنحدد مكانه وزمانه ، ونربط بينه وبين غيره ممن نعرف . وفى ذلك يقول وليم جيمس : « كلما برزت لنا تجربة مجردة عن موضعها فى الزمان يصعب علينا ألا نعتقد أنها من اختراع الخيال . ولكنها تصبح قطعة من الذاكرة وتتحدد الذكرى شيئاً فشيئاً كلما أحاطت بها

روابطها الماضية ، وكلما أصبحت هذه الروابط أكثر تمييزاً . دخلت يوماً عند أحد الأصدقاء ورأيت صورة زيتية معلقة على حائط حجرته ، فأحسست أول الأمر إحساساً غريباً : لا ريب أنني رأيت هذه الصورة من قبل فى مكان آخر ، ولكن أين ؟ وكيف ؟ لم أستطع قولا . وظل هذا الإحساس بأنني رأيتها من قبل يطوف بالصورة إلى أن صحت فجأة : لقد وجدتها ! إنها نسخة من رسم أنجليكو بأكاديمية فلورنسا . نعم لقد رأيتها هناك . لقد وجب أن أحيي فى ذهنى خيال أكاديمية فلورنسا كى أتحقق من صدق الذكرى للصورة » .

فهذه هى الطريقة لتدارك نسيان التعرف : أن تسعى لوصل ما تراه بما سبق أن رأيته من قبل .

نسيان الطفولة ونسيان الأحلام

من أغرب الظواهر الخاصة بالنسيان اختفاء الأحداث التى وقعت فى الطفولة المبكرة. ونسيان الأحلام التى تمر بنا فى النوم.

وليس من الممكن إجراء تجارب معملية، أى فى معامل علم النفس، كما فعل العلماء فى الحفظ ومعرفة طرقه، ولذلك نلجأ إلى « التأمل الباطنى » أى أن ينظر الإنسان فى باطن نفسه ليذكر ما يشاهده فيها. وهذه إحدى الحالات التى نضطر فيها إلى الالتجاء إلى منهج التأمل الباطنى أو الاستبطان. ويستطيع كل من يقرأ هذا الكتاب أن يفعل ذلك فى نفسه، فيتأمل ذاته ويعود مع الماضى إلى الوراء يبحث عن أول ذكرى يستطيع أن يسترجعها فى طفولته.

أما أنا فأقدم الذكريات التى وقعت لى هى حفلة زفاف عمى، وكنت فى ذلك الحين فى الثالثة من العمر تقريباً. ولست أذكر أحداث ذلك اليوم بوضوح، وإنما هى لمحات تضىء بعض تلك الحوادث، ومنها أنى لبست "بدلة" جديدة. لست أدرى أكانت أول بدلة لبستها أم لبست قبل ذلك غيرها.

ولا أذكر لونها أو هيئتها . ثم أذكر زحمة شديدة وكأنى كالضائع وسط ذلك الزحام . ثم أذكر عربة مذهبة تجرها عدة جياد ، وكانت تسمى عربة « زينب هانم » ، هى التى تركب فيها العروس وأذكر أنها كانت واقفة فى شارع قريب منا . وفى الليل أتذكر صورة غامضة عن أضواء وموسيقى وأشخاص كثيرين وموائد للطعام ، وأنى بكيت ولا أعرف لماذا .

لعلك تلاحظ معى انقطاع الصلة بين تلك الصور الماضية ، بحيث لا تكوِّن سلسلة مرتبطة . وتلاحظ كذلك غموض تلك الصور ، وتلاحظ ثالثاً أن الصفة العاطفية هى الغالبة ، عواطف فرح وحزن ودهشة .

وهناك حوادث أخرى بعد الثالثة من عمرى لا أزال أذكر بعضها فى غموض كذلك ، مثل ذهابى إلى كتاب صغير قبل التحاقى بالمدرسة ، حيث تعلمت فى ذلك الكتاب القرآن حتى سورة « عم يتساءلون » ، وكنت أحمل لوحاً من الإردواز . وحادثة أخرى لا أذكر إلا شيئاً يسيراً منها ، هى موت أخ لى كان كان اسمه محموداً ، مات محروقاً وهو يعبث بعيدان الثقاب ، ولكنى لا أتذكر من صلتى بهذا الأخ إلا صورة واحدة وهى أننا نلعب بعد الظهر فى فناء البيت .

ويهمنى أن أذكر من ذلك الماضى البعيد شيئاً كنت أسميه

« الكابوس » ولا أعلم فى أى سن كانت تلك الذكرى ، فهى تدور حول الثالثة أو الرابعة . فى البيت الذى كنا نقطنه ، وهو بيت واسع فيه فناء ، كنا نشغل الدور الثانى منه ، ونتناول الطعام وننفق معظم الوقت فى حجرتين بين الدور الأول والثانى . ولم يكن نور الكهرباء قد عم البيوت بعد ، فالإضاءة بمصابيح الغاز . وحين يقبل المساء ، نتناول العشاء فى تلك الحجرتين ثم يطلبون منى أن أصعد للنوم ويبقون هم ، فاعتذرت مرة عن الانصراف والصعود إلى أعلى واجتياز سلم البيت ، حتى لا أرى « الكابوس » كما كنت أسميه ، وهو عبارة عن أشباح تتراءى على الحيطان تخيفنى .

أشباح وخوف ، هذا ما أذكره .

وهنا نجد تقارباً بين نسيان الطفولة ونسيان الأحلام ، لأن الأحلام أشباح تتراءى ، والأغلب أنها تصبغ بصبغة انفعالية أهمها الخوف ، فالعلة فى نسيان أحداث الطفولة تشبه العلة فى نسيان الأحلام . هذه العلة هى اقتراب الصور من « الحقيقة » أو ابتعادها عنها ، فى الطفولة وبخاصة المبكرة تختلط الحقائق بالخيالات حتى لقد يعيش الطفل فى عالم من الخيال والأشباح ، وفى النوم يرى النائم فى أحلامه أضغاثا من الرؤى يخيل إليه أنها حقائق . أى أن حقائق الطفل خيالات ،

وخيالات الحالم حقائق ، ولا يستبقى الإنسان إلا الحقائق التى تثبت أنها كذلك ، وهو لذلك ينسى أحداث الطفولة لأنه كان يضفى على الحقيقة من خياله ما يجعلها أدنى إلى الأشباح ، وينسى الأحلام لأن عقله الواعى يعلم أنها أضغاث وأباطيل .

هذه إحدى النظريات فى نسيان أحداث الطفولة ونسيان الأحلام، وسوف نعود إلى تفصيلها بعد قليل .

وهناك نظريتان أخريتان إحداهما نظرية فرويد الذى يذهب إلى أن نسيان أحداث الطفولة نتيجة « الكبت » ، وكذلك الحال فى الأحلام . والثانية نظرية جمهرة من علماء النفس ومنهم « بيرون » وهى أن نسيان أحداث الطفولة المبكرة يرجع فيما يبدو إلى سبب عضوى ، هو قصور نمو المخ . ولكن هذه العلة إذا صحت بالنسبة للطفولة فهى لا تعلل نسيان الأحلام . هذا فضلا عن اختلاف الأفراد فى نسيانهم اختلافاً كبيراً ، فبعض الناس يذكر أشياء وقعت له وهو فى الشهر السادس ، والبعض الآخر لا يذكر شيئاً قبل سن الثامنة من العمر .

فى تجارب فكتور هنرى وزوجته والتى أجرياها على ١٢٣ طالباً من المراهقين كانت النتيجة كما يأتى :

السن	٦ شهور	٨	١ سنة	١½	٢	٢½	٣	٣½	٤	٥	٧	٨
العدد	١	٢	٤	٩	٢٣	٢٠	١٩	١٤	١٢	٦	٢	١

أما بلونسكى Blonsky فقد أجرى تجربتين الأولى على ١٩٠ من الطلبة البالغين الروس . وتراوحت الذكرى بين سنة وثمانى سنوات . والأخرى على ٨٣ طالباً تتراوح سنهم بين ١١ - ١٢ عاماً . فكانت النتيجة بين سنة وست سنوات . ويرى بلونسكى أن متوسط السن التى يتذكر فيها المرء أحلامات الطفولة هى الثالثة .

وأجرى برت Burtt تجربة على ابنه البالغ من العمر ثمانى سنوات ، إذ جعله يحفظ نصوصاً من اللغة الإغريقية . كان يقرأ عليه بعضها يومياً لمدة ثلاثة شهور ، حين كان عمره بين خمسة عشر شهراً وثلاث سنوات ، فرأى أن النصوص التى كان قد سمعها وهو طفل أسهل فى حفظها عن الأخرى . مما يدل على وجود أثر تلك المحفوظات فى تلك السن الصغيرة الغضة .

وقد فطن علماء النفس منذ القرن الماضى إلى احتفاظ الطفل بالآثار التى تقع تحت حواسه ، وإلى ظهورها تحت ظروف خاصة ، ومنها ظاهرة اللغات التى يكون الشخص قد سمعها فى طفولته . مثال ذلك ما رواه ريبو نقلا عن الدكتور

دوڤال من أن حطاباً عجوزاً كان يعيش فى صباه على حدود بولندا ، ولم يكن يتكلم إلا اللغة البولندية . ثم انتقل بعد ذلك إلى المنطقة الألمانية وعاش فيها . وأكد أولاده أنه لم يتكلم اللغة البولندية منذ أربعين سنة ، وما سمعوا منه كلمة واحدة بولندية . وأجريت له عملية جراحية وظل مخدراً ساعتين كان يتكلم فى خلالهما ويصلى ويغنى باللغة البولندية فقط .

ومن العوامل التى تنفض الغبار عن ذكريات الطفولة التخدير بالكلورفورم أو أنواع المخدرات الأخرى . ومن العقاقير الحديثة التى تستعمل فى ارتياد اللاشعور عقار يسمى سكوبوكلورالوز Scopochloralose وقد لاحظ الأطباء ظهور ذكريات قديمة عندما يقع المريض تحت تأثير المخدر فتبدر منه أشياء تعد من العجائب . من ذلك أن امرأة أخذت وهى تهذى تحت تأثير المخدر تُسَمِّع نصا من لغة أجنبية لا تفهم معناه كانت قد سمعته وهى طفلة دون أن تبذل أى جهد فى حفظه .

وكثيراً ما يلجأ علماء النفس إلى التنويم المغناطيسى لمعرفة الأحداث الماضية التى وقعت للمريض أثناء الطفولة ونسيها . وكان العلماء قد عدلوا عن التنويم المغناطيسى إلى طريقة « التداعى الحر » و « التداعى المقيد » وذلك بأن يستلقى

المريض فى استرخاء ويأخذ فى سرد أفكاره . إلا أن بعض المرضى يأبون أن يتذكروا ويقاومون ظهور كوامن أنفسهم ، ولذلك عاد العلماء منذ الحرب الأخيرة إلى استعمال التنويم المغناطيسى . مثال ذلك أن امرأة أصيبت بداء الوسوسة وكلما غسلت يديها بالماء خيل إليها أنه دم ، وظلت على هذه الحال الحال ثلاث سنوات ، فاستشارت أحد الأطباء النفسانيين فتذكرت وهى تحت تأثير النوم المغناطيسى أنها حين كانت فى الخامسة من العمر شاركت فى ذبح دجاجة فتلوثت يداها بالدماء فغسلتهما . ولكن هذا المنظر أثر فى نفسها أثراً شديداً فى ذلك الحين ، ونسيته مع الوقت ، إلى أن عاد إلى الظهور لاشعوريا وهى امرأة .

أما فرويد وأصحاب مدرسة التحليل النفسانى فإنهم يذهبون إلى أن كل ما يقع تحت حواس الطفل منذ أن يولد يظل باقياً فى نفسه لا يزول أبداً ، ويحرك صاحبه لاشعورياً فى مستقبل حياته . ويُرْجِع فرويد إلى اللذة الجنسية كل سلوك للإنسان . ويزعم أن الوليد يشعر بلذة جنسية من لمس سطح جلده ، وأن بعض المواضع أكثر حساسية من غيرها مثل الفم عند امتصاص الثدى ، والأعضاء التناسلية وعند التبول والتبرز . ولذلك يعلل فرويد إدمان المدخن على وضع « السجارة » فى

فمه إلى تلمس تلك اللذة التى كان يحس بها وهو طفل رضيع يمتص ثدى أمه ، أو الثدى الصناعى .

ويهمنا أن نبسط تعليل فرويد لنسيان الطفولة ، فهو فى مذهبه يتكون حول الخامسة من العمر ، عندما يتكون « الرقيب » وهو عبارة عن حاجز من التقاليد والدين والنواهى التى تفرض على الطفل وخاصة فى الحياة الجنسية ، إذ بعد أن كان الطفل حراً لا يعقل الأمور الجنسية ولا يخفيها أهله عنه لقلة إدراكه ، إذا به يؤخذ بالشدة ويؤمر بإخفاء الأعضاء التناسلية ويحرم عليه الحديث عنها ويجد ستاراً حديدياً مضروباً حول هذه المسائل . وبذلك يتعلم أن « يكبت » الخواطر التى تدور حول الأمور الجنسية ، وهنا يبدأ الرقيب أن يتكون ويصبح حاجزاً يخفى وراءه كثيراً من الأشياء يتعود نسيانها مع الزمان ، ويخاف ظهورها ويهرب من النظر إليها بل ومن التفكير فيها . وليس الحياء الذى يصاحب المرء حين يواجه المسائل الجنسية إلا مظهراً من مظاهر الخوف . ولذلك كان ما يخفيه المرء ، ويكبته ، أو ينساه ، هو ما يخاف منه ، وما يكون مصدر ألم له .

ولا تثبت نظرية فرويد للنقد طويلا ، لأن متوسط سن النسيان لأحداث الطفولة هو الثالثة كما اتضح من التجارب

العلمية . على حين أن الرقيب الذى يحدثنا عنه فرويد لا يظهر إلا بعد الخامسة . ومن جهة أخرى نرى أن كثيراً من ذكريات الطفولة التى لا تزال حية عند أصحابها هى ذكريات تقوم على الخوف أو الألم، مما يناقض نظرية فرويد فى الكبت .

ونحن نميل إلى تأييد النظرية الاجتماعية فى نسيان الطفولة . وهى نفسها تنطبق على نسيان الأحلام .

وليس من الممكن تطبيق المناهج العلمية الموضوعية على الأحلام كما يفعل العلماء فى ظواهر نفسية كثيرة . لأن الحلم يدور بينه وبين صاحبه ولا يمكن ملاحظته من الخارج ، بل أكثر من ذلك لا يمكن لصاحبه أن يلاحظ نفسه وهو يحلم إلا بعد اليقظة ، فإما أن يتذكر الرؤيا وإما أن ينساها . وذهب بعض العلماء إلى أن كل إنسان يحلم فى نومه ولكنه لا يتذكر . والأغلب أن الحلم سريع النسيان ، ولذلك نصح العلماء الذين يدرسون الأحلام أن يحتفظ المرء بورق وقلم إلى جانب السرير حتى إذا استيقظ عقب الرؤيا دوّنها مباشرة قبل أن تغيب فى مجاهل النسيان . ويقول بعض العلماء إن الأحلام لا تظهر إلا فى الوقت الذى يخف فيه النوم ؛ أما النائم المستغرق فى نومه فلا يحلم . وهم يعتمدون فى تأييد هذه النظرية على أن الباعث إلى الأحلام هو الإحساسات الظاهرة أو الباطنة ،

ولا يحس المرء إلا إذا كان فى شبه يقظة .

وعند فرويد أن النوم الصحيح ما كان بغير أحلام ، فإذا حلم المرء كان هذا دليلا على أن صاحب الرؤيا لا يزال يتأثر بالمؤثرات الخارجية والداخلية ؛ غير أن هذه التأثيرات خارجية كانت أم داخلية أى فى صورة رغبات ومخاوف ، تتحول إلى صور عجيبة فى الحلم فلا توقظ النائم ، ولذلك كان الحلم تحقيق رغبة لا يمكن تحقيقها فى الواقع ، وهو لهذا السبب « حارس النوم » .

وتمتاز الأحلام بأمرين : خروجها عن منطق العقل فى تركيب الصور ، وعدم تقيدها بالزمان . وكلا الأمرين لا يتفقان مع الحياة الواقعية التى يعيش فيها الإنسان مع غيره من الناس ، ويضطر إلى تقييد نفسه بترتيب الأحداث ووضعها فى موضعها من الماضى كى يكون مفهوماً من غيره حين يحدثهم عن هذه الأحداث معبراً عنها بالكلام .

فالحياة الواقعية تضطرنا إلى التذكر ، أى وضع الأشياء فى موضعها الصحيح من الزمان . ويضرب الأستاذ بيير جانيه مثلا لاضطرار المرء إلى التذكر بمعسكر لجماعة من البدائيين وضعوا عليه ديدبانا مكلفاً بمراقبة الأعداء ومعرفة حركاتهم ونقلها إلى رئيس القبيلة ، ويضطر الديدبان إلى رواية

ما حدث من ذاكرته بطريقة مفهومة مرتبة ، فهو يجيب عن أسئلة الرئيس واستفهاماته بأن هذا الشخص جاء « قبل » ذاك ؛ وجرى هذا الشخص « بعد » ذاك ، ووقع هذا الحادث فى الصباح . وذلك الحادث عند الظهر ، وهكذا . وإذا نسى الديدبان هذه الحوادث ، أو اضطرب فى روايتها ، أدى ذلك إلى وقوع القبيله بأسرها فى الخطر .

ونحن فى الحياة الواقعية مضطرون إلى التعامل مع غيرنا من الناس فى هيئة معقولة من الكلام ، وإلى ترتيب الحوادث ترتيباً صحيحاً فى سجل الزمان . نحن إذن فى حياتنا الواقعية « مقيدون » . ولا تحسبن أن هذا التقييد الذى تفرضه علينا الحياة الاجتماعية يروقنا ، ولذلك « نهرب » منه ، أى نهرب من القيود . ولكن أين المفر ؟ إننا نهرب فى أحلام اليقظة ، وفى الأحلام ، حيث نكون أحراراً لا نتقيد بترتيب الزمان . فالطالب فى أول العام يتصور وهو فى أحلام يقظته أنه نجح فى الامتحان آخر العام ، والتاجر يرى فى أحلامه أنه كسب فى تجارته ، وكلاهما يحقق رغبته بغير جهد ، ويقفز إلى المستقبل كأنه الحاضر دون أن يمر بمراحله . جملة القول لا يراعى الإنسان فى أحلامه ترتيب الزمان ، ولا يحفل به ، فيرى الماضى حاضرا ، ويجعل المستقبل ماضياً ، وهذا كله اختلال

لا ترتضيه الذاكرة ، ولا حاجة بعد ذلك النسيان ، بل ولا حاجة إلى التذكر أصلا ؛ وهذا هو سر نسيان الأحلام عقب وقوعها .

ومن هذا الوجه يمكن تعليل نسيان الطفولة أيضاً ، لأن الطفل قبل الثالثة من العمر لا يميز الزمان ، فهو لا يعرف الوقت ولا يدرى اليوم من الأمس حتى ليقول ذهبنا « باكر » إلى الحديقة وهو يريد « الأمس » ، ولو سئل عن الوقت أهو ليل أم نهار لم يميز لأنه لا يعرف ، فهو من أجل ذلك لا يستطيع أن يتذكر ، وهذه هى علة نسيان الطفولة ، نعنى عدم إدراك الطفل للزمان .

وقد مر بنا فى ابتداء هذا الكتاب أن الذاكرة نوعان ، آلية ولفظية ، أو حركية ومعقولة ، ويضيف بعض العلماء إلى هذا التقسيم نوعاً ثالثاً هو الذاكرة « الوهمية » ، فإذا كانت الآلية تعتمد على الإحساس والحركة وتعم الإنسان والحيوان ، فإن الذاكرة اللفظية « اجتماعية » لأن الألفاظ المنطوقة التى تعبر عن المعانى إنما نشأت لحاجة الإنسان إلى التعامل مع غيره من بنى جنسه ونقل أفكاره إليهم ؛ أما الذاكرة الوهمية فهى « لا اجتماعية » وهى التى تظهر عند الطفل فى بدء نشأته ، وعند المريض الذى يهذى ، وعند النائم الذى يحلم . ذلك أن

الصور التى تتتابع فى الأحلام والهذيان تبعث مشاهد من الماضى . ولكن صاحبها لا يراها قطعة من الماضى بل جزءاً من الحاضر ، لأنها بالنسبة له حين يهذى أو يحلم حاضر وواقع . ذلك أن الذاكرة فى الحلم تعيش فيه كأنه هو الحقيقة ، وقد يعتقد الحالم فى حلمه إلى حد يبعثه إلى الحركة فينهض من فراشه ويأتى أعمالا كثيرة كما هى الحال فى « الجولان النومى » .

ويذهب معظم العلماء إلى أن ظهور ذكريات الطفولة المبكرة نوع من فيض التذكر أو إفراط فى التذكر Hypermnésie كهذه الأمثلة التى ضربناها عن الذين تذكروا لغات أجنبية سمعوها فى الطفولة . ويفسر جان ديلاى هذا الإفراط بأنه تحرير للذاكرة الوهمية التى تحجزها الذاكرة الاجتماعية عادة وما يتصل بالحياة الاجتماعية من انتباه وتقييد وملاءة مع الواقع . فإذا زالت الحواجز الاجتماعية تحطمت الذكرة العقلية وفاضت الصور على هواها ، وكان ذلك علة أمراض الذاكرة .

جملة القول نحن نذكر ما يهمنا كما قلنا من قبل ، وما يهمنا خاضع لمنطق الواقع فى الحياة الاجتماعية ، اللهم إلا إذا عجز المرء عن مسايرة المجتمع ولقى منه عنتاً ، فهو يهرب منه ويعيش فى عالم الوهم والخيال ، ويخلق الصور على هواه . وهذه هى حال الطفل ، وحال النائم الحالم .

ومما يلاحظ أن الطفل يمر بالذاكرات الثلاث على التوالى ، فهو يبدأ بالذاكرة الآلية فتنشأ عنده عادات تقوم على ما يتعلمه بطريق المحاولة وحذف الأخطاء وطريق الأفعال الشرطية . ويمر بعد ذلك وهو فى الثانية والثالثة والرابعة بمرحلة الذاكرة الوهمية التى يعيش فيها فى عالم من الخرافة والأوهام ، لا يميز بين الماضى والحاضر ، ولا يفصل بين الخيالى والحقيقى . وهناك بعض الصبيان المتخلفين يقفون عند هذه المرحلة مع بلوغهم سناً كبيرة . حتى إذا بلغ الطفل الخامسة بدأ فى مرحلة جديدة هى مرحلة الذاكرة الاجتماعية ، وهى ذاكرة منطقية مرتبة تنتظم فى سلك الزمان .

وإذ قد وفينا البحث عن النسيان الطبيعى الذى يعم أغلب الناس ، فلنكتف بهذا القدر ولننتقل إلى الحديث عن النسيان الذى يعد فى باب المرض والشذوذ .

النسيان فى الحياة اليومية

اهتم فرويد بهذا الموضوع منذ أكثر من خمسين عاماً ، وكتب فيه كتاباً اسمه « المرض النفسى فى الحياة اليومية » نقل إلى معظم اللغات الحية ، ما عدا اللغة العربية . وقد قرأت الكتاب منقولاً إلى الفرنسية ، وتوجد منه طبعة إنجليزية رخيصة . ولكن ترجمته إلى العربية فى غاية الصعوبة لأن المؤلف يشير إلى أسماء واصطلاحات باللغة الألمانية لا تفهم إلا فى أصلها . والكتاب على الرغم من مخالفتنا لمذهب صاحبه فى غاية الطرافة لأنه يقوم على رواية حوادث شخصية يحللها فرويد على نفسه أو يحكيها عن أشخاص عرفهم وسألوه رأيه . وهو يتحدث فى الفصل الأول عن نسيان أسماء الأعلام وفى الثانى عن الأسماء الأجنبية وفى الثالث عن نسيان الألفاظ وفى الرابع عن ذكريات الطفولة ، إلى فصول أخرى كثيرة .

ونحب أن نقف عند ذكريات الطفولة ليكون الحديث موصولا بما سبق . وليس من المهم أن نبدأ بباب معين ، لأن فرويد صاحب نظرية عامة يفسر بها جميع المظاهر النفسية . وأساس هذه النظرية الاعتقاد بوجود « حتمية

بسيكولوجية » أى أن أى سلوك إنسانى مهما يكن تافها فلا بد أن يخضع لعلة ؛ وإذا عجزنا عن معرفة هذه العلة فذلك نقص فى علمنا . ثم يقسم فرويد الحياة النفسية إلى شعورية ولاشعورية وأن الأحداث اللاشعورية هى التى توجه السلوك الشعورى . وهذه الحياة اللاشعورية لها منطقها الخاص ، وإذا أخفيت بعض الأمور نتيجة « الكبت » ، فإنها تظهر فى ثوب مقنع بما يسميه الاستبدال أو الانتقال . ويعتمد فرويد على النسيان فى الدلالة على وجود هذه الحياة اللاشعورية .

ولنرجع إلى حديث نسيان الطفولة . وقد لاحظ فرويد أن أحداث الطفولة المبكرة التى نذكرها هى فى الغالب تافهة وعديمة القيمة ، وننسى إلى جانب ذلك حوادث أخرى عظيمة الأثر . فإن قال قائل إن التذكر يقوم على الاختيار ، وأن الطفل قد اختار هذه الأحداث دون غيرها لأن عقليته تختلف عن عقلية الكبار ، رد عليهم فرويد بأن النظر العميق يدل على أن هذه الحوادث التافهة لها دلالتها ؛ لأنها تخفى وراءها أموراً أخطر ، وترتبط بها بما يسميه عملية الاستبدال Déplacement ومن أجل ذلك يسمى فرويد حوادث الطفولة التى نتذكرها حوادث للتعمية أو التغطية Souvenirs de couvertures ، لأمور جنسية يكبتها صاحبها .

هذا شاب فى الرابعة والعشرين يتذكر وهو فى الخامسة أنه جالس فى حديقة منزل ريفى إلى كرسى بجانب عمته التى كانت تعلمه الإبجدية . ولقى مشقة فى التمييز بين حرف الميم والنون (باللغة الإفرنجية N و M) فطلب من عمته أن تعلمه كيف يميز بينهما ، فأخبرته أن الميم (بالإفرنجية طبعاً) لها رِجْل تزيد على النون . وحول ذلك الوقت أراد أن يعرف الفرق بين الولد والبنت فطلب من عمته أن تخبره عن هذا الفرق فأجابته الجواب نفسه . يقول فرويد إن العلة فى تذكر هذه الحادثة التافهة أى الفرق بين الميم والنون رمز يخفى وراءه التمييز الجنسى بين الولد والبنت .

لفت النسيان نظر فرويد ولم تقنعه تعليلات غيره من من العلماء فأخذ يراقب نفسه يحللها ، كما أخذ يصف ذاكرته وقوتها قال : إنى لا أنسى بسهولة وكنت فى حداثة سنى صاحب ذاكرة فائقة الحد فى القوة . ففى عهد التلمذة كان يلذ لى أن أردد عن ظهر قلب صفحة بأكملها عقب قراءتها ، وكان فى استطاعتى إعادة محاضرة علمية بعد سماعها . واستطعت فى امتحان دبلوم الطب أن أجيب عن الأسئلة بما جاء فى الكتب المقررة مع أنى لم أقرأها إلا مرة واحدة قراءة عاجلة . ولم تضعف ذاكرتى منذ ذلك الحين .

وإنما ساق فرويد هذه المقدمة عن قوة ذاكرته ليبين أنه إذا نسى بعد ذلك شيئاً كان الأمر يدعو إلى الغرابة . وهذه إحدى نوادر نسيانه قال : كنت مكلفاً أن أشترى لسيدة جاءت حديثاً إلى فينا صندوقاً حديدياً تحفظ فيه أوراقها وأموالها . وكان فى ذهنى فى الوقت الذى عرضت عليها معونتى صورة واضحة لواجهة محل فى وسط المدينة رأيت فيه هذا النوع من الخزائن . ومع أنى لم أذكر اسم الشارع إلا أنى كنت على يقين من العثور على المحل إذا تجولت فى المدينة لأنى أذكر أنى مررت به مئات من المرات . ولكن العجيب من الأمر أنى عجزت عن معرفة المحل على الرغم من البحث فى الدليل لمعرفة عنوان جميع مصانع الخزائن . ولم أكن فى حاجة إلى ذلك كله إذ لم يكد بصرى يقع على اسم المحل فى الدليل حتى عرفته وتذكرته . ولا ريب أنى كنت قد مررت بذلك المحل مئات المرات من قبل كلما ذهبت لزيارة أسرة « فلان » التى تسكن فى البيت نفسه الذى يوجد فيه ذلك المحل . فلما قطعت صلتى بتلك الأسرة تعودت دون أن أشعر أن أتجنب المرور فى ذلك الحى وبتلك الدار ، نتيجة الشعور بالكراهية لأهل الدار . أما نسيان محل الخزائن فيرجع الى ارتباطه بالدار ، أو على حد تعبير فرويد نتيجة عملية استبدال أو انتقال .

ومن الأمور التى يشكو كثير من للناس نسيانها الأشياء التى يطلبونها من مواضعها فلا يعثرون عليها ، لأنهم ينسون أين وضعوها ، كالحال فى المؤلف الذى ينسى أين وضع كتاباً أو ورقة . ويروى فرويد أنه لا يجد صعوبة ما فى البحث عن كتاب وضعه على مكتبه ، ولكنه عجز فى إحدى المرات عن إيجاد قائمة بالكتب (كتالوج) استلمه بالبريد ، وكان عازماً أن يطلب كتاباً قرأ عنوانه فيه وهو يتعلق باللغة ، ومؤلفه ممن يحب فرويد أسلوبهم ويقدر آراءه فى علم النفس والتاريخ والحضارة . ويذهب فرويد إلى أن هذا الإعجاب بصاحب الكتاب هو علة نسيان الكتالوج .

ونقل فرويد عن غيره هذه الحادثة للدلالة على أن معرفة سبب النسيان يؤدى إلى ذهاب النسيان قال : أرادت فتاة أن تقص قطعة من القماش فأفسدتها عندما قصت الياقة » واضطرت إلى استدعاء حائكة ثياب لإصلاح ما أفسدته . فلما وصلت الحائكة بحثت الفتاة فى كل مكان عن القماش ، وقلبت الأدراج رأساً على عقب دون فائدة ، حتى إذا أخذ الغضب منها مأخذه أخذت تحدث نفسها قائلة كيف اختفى القماش ، لا ريب أنى « لا أريد » العثور عليه . ولما عاد الهدوء إلى نفسها تبينت أنها كانت فى خجل أن تظهر الحائكة على عجزها عن

قص ياقة فستانها. وبعد أن اطمأنت إلى هذا التفسير قامت من مكانها واتجهت إلى أحد الدواليب واستخرجت منه قطعة القماش.

وأنت ترى من هذه الأمثلة اليسيرة التى نقلناها عن كتاب فرويد أنه لا يُرجع كل نسيان إلى علة جنسية، أو إلى علة عميقة الجذور فى الطفولة، فقد يكون الأمر مجرد بغض أو نفور أو هيبة أو خوف ولكن هذه العواطف تكمن فى اللاشعور وتحرك صاحبها.

والرأى عندى الذى وصلت إليه نتيجة تجاربى الخاصة أن ما يحبه المرء يقبل عليه ويذكره، وما يبغضه ينفر منه ويبتعد عنه، إما شعورياً وإما لاشعورياً. فهذه سيدة أغلقت الدولاب بالمفتاح ووضعت المفتاح فى حقيبتها عند خروجها خشية أن تمتد يد الخادمة إلى العبث بالمجوهرات الموضوعة فى صندوق داخل الدولاب وأن تسرقها. ويتضح بعد ذلك أن السيدة حين تنبهت إلى هذا الأمر ونظرت إلى الصندوق كانت قد أخرجته ووضعته على السرير إلى جانب الدولاب ونسيته هناك. فلما عادت من الخارج عجبت كيف نسيت الصندوق على السرير مع شدة عنايتها أن تحفظ حليها من السرقة، وأن تقفل عليها بالمفتاح. وتبين من التحليل النفسانى أنها ترغب فى تغيير

حليها وشراء حلى جديدة .

وكنت فى صدر شبابى حاد الذاكرة لا أنسى مما أقرأ شيئاً . وكان يكفى أن أقرأ الكتاب مرة واحدة حتى ترتسم صفحاته فى ذهنى ، حتى إذا حضرت الامتحان تمثلت الكتاب أمامى كأنى أقلبه ، ذلك أن ذاكرتى بصرية ، وقراءتى صامتة . واشتريت وأنا فى الثانية عشرة من عمرى مصحفاً صغيراً أضعه فى جيبى وعزمت على حفظ بعض سور من القرآن ومنها سورة «يس» . ثم انقطعت عن قراءة القرآن وحفظه ، وسألنى والدى فيما بعد — وكان كثير التلاوة والعبادة — لماذا لا أحفظ القرآن ، فأخبرته أنى أحفظ سورة «يس» ؛ فلم يصدق ، فتلوتها عليه فاندهش . ولكن هذه الذاكرة الشديدة القوة قد ذهبت الآن إلى درجة أنى أنسى أسماء الكتب ومؤلفيها مع اشتغالى بتدريسها . وأغرب من ذلك نسيان أسماء الأشخاص الذين أعرفهم والذين تربطنى بهم صلات قوية . وكثيراً ما تحدث لى هذه الظاهرة الضيق والحرج ، إذ أقابل شخصاً فى الطريق أعرفه من شكله ، فأسلم عليه ، ويهدينى السلام ، ويحيينى باسمى ، ونتحدث معا حديث الأصدقاء ، ولكن اسمه يهرب منى ولا يجرى على لسانى ، وقد أذكره بعد أن نفترق وبعد أن أفتش عنه فى ذاكرتى مستعيناً بالروابط الذهنية الماضية .

وينكشف حرجى إذا كان معى صديق آخر ، أو قدم علينا شخص ثالث ، ويصبح من واجبى القيام بتقديم أحدهما إلى الآخر وتعريف بعضهما إلى بعض .

وأخبرنى أحد أصدقائى المحامين . وكنا نتحدث عن عجائب النسيان ، وأخذ كل واحد يذكر نوادره ، قال : كلفنى صاحب المكتب الذى أشتغل عنده أن أبحث قضية وأكتب فيها مذكرة ، وبعد يومين سألنى عن رأيى فى تلك القضية ، فقلت له إنى لم أبحثها بعد . قال : كيف لم تبحثها وقد قدمت فى موضوعها مذكرة ؟ قلت : إنى لم أكتب أى مذكرة . فأخرج من بين أوراقه المذكرة وأطلعنى عليها وقال : أليس هذا خطك ؟ وعندئذ فقط تذكرت ، وعجبت لهذا النسيان .

ومن أغرب حوادث النسيان التى وقعت لى أنى كنت فى زيارة برلين عام ١٩٣٦ فى دورة الألعاب الأولمبية ، وكانت النقود التى يصرفونها فى ذلك الحين نقود سياحة تقل أربعين فى المائة عن السعر الرسمى لاجتذاب السائحين ، على أن يصرف هذا النقد أو المارك مع التوقيع على جواز السفر فى صورة شيكات تسمى « الرايخ مارك » وهى لا تصرف إلا من البنك . فى صباح اليوم الثانى من وصولى برلين ذهبت إلى البنك

لأصرف الشيكات ، ولكنى نسيت جواز السفر فى الفندق . فلم أستطع الصرف فى ذلك الصباح . وعدت بعد الغداء إلى الفندق ، وجلست عند الأصيل أكتب بعض الرسائل إلى أصدقائى ولمحت أمامى جواز السفر فقلت ضعه فى جيبك حتى لا تنساه ، ثم تحسست شيكات الرايخ مارك فلم أجدها . فطار صوابى إذ لم يكن معى مال غيرها أنفقه فى ذلك البلد . وجلست أتذكر أين وضعتها ، وأين يمكن أن أكون قد نسيتها ، واستعرضت جميع الأماكن التى ذهبت إليها ، وطرقتها أسألها ؛ وأخيراً ذهبت صباح اليوم التالى إلى البنك وسألت عنها ، فأخبرنى الموظف هناك أنى نسيتها على المنضدة .

وأحسب أن تعليل فرويد من أننى أكره هذه الشيكات فى اللاشعور تعليل لا يستقيم . وإنما العلة الصحيحة هى تلك القاعدة التى سبق ذكرها من قبل فى باب الحفظ ، وهى عدم التداخل ، لأن ازدحام الذهن بعدة أمور فى آن واحد يؤدى إلى التضارب وإلى الاختلاط . وقد قال الله تعالى :

« مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ »

هذا إلى أنى حين أشتغل بعمل عقلى ، كتأليف كتاب ، أو كتابة مقالة ، أو إلقاء محاضرة ، أنصرف إليه انصرافاً تاماً ، فأستغرق فيه ، وأظل أفكر فى الموضوع حتى وأنا أمشى

فى الطريق أو أركب الترام أو أختلف إلى مجلس من الأصدقاء، حتى إذا اجتذبنى التأمل ذهلت عما حولى . وأحسب أن هذا الاستغراق شرط كل منتج وكل مبتكر . وليس من الغريب بعد ذلك أن تسمع القصص عن بعض العلماء الذين نسوا حتى اسم أنفسهم لأن أذهانهم كانت مشغولة بالتفكير فى حل المسائل .

وقد يكون الاستغراق الذى يصرف الذهن عن الناس وعن الأشياء لعلة أخرى غير علة الابتكار والاختراع والتأليف ، لأن انشغال البال قد يرجع إلى الهموم التى تفضى إلى القلق . وما بالك بمن فقد ماله أو ولده أو أصيب بمرض يستعصى شفاؤه وغير ذلك من الصعاب التى تفاجىء المرء ولا يجد لها حلا أو مخرجاً ، فيظل حبيس نفسه تثقله الهموم وتدور فى رأسه الأوهام . حتى ليغفل عما حوله ، وإذا اشتد به الهم نسى كل شىء ، لا بعض الأسماء أو الأشياء فقط . ومن شأن الكوارث إذا نزلت أن تزيد فى حدة التذكر أو تدفع إلى النسيان كما قال البحترى يصف إيوان كسرى :

ذكرتنيهم الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب وتُنسى

ثم إن اتساع العمران وتعقد المصالح فى الحضارة الحديثة مما تنوء به ذاكرة أى فرد ، ومن أجل ذلك اهتدى الإنسان

إلى الكتابة يقيد معلوماته ، وأصبح يستعين بالمذكرات أو المفكرات يدون فيها مواعيده ويعلم منها مصالحه فى غده وما بعد غده . وهذا التقييد ضرب من التنظيم حتى لا يعول المرء تعويلا تاماً على ذاكرته ، التى قد تثقلها المشاغل والمواعيد .

ولكن فرويد لا يؤمن بهذه الأسباب العامة ، ويحاول أن يلتمس سبباً لنسيان كل اسم يغفل عنه من يريد تذكره . وهو ينعى على غيره من علماء النفس — فى استهلال الكتاب الذى ننقل عنه — أنهم إذا سئلوا لم ينسى المرء اسم صديق قالوا : لأن أسماء الأعلام أقرب من غيرها إلى النسيان . ثم يروى فرويد قصة نسيانه اسم فنان يسمى سنيوريللى Signorelli معللا ذلك بالكبت والإبدال . قال : كنت فى رحلة ومعى أحد الغرباء فى العربة ونحن نجتاز دلماسيا من أعمال البوسنة عام ١٨٩٨ . ودار بيننا الحديث حول إيطاليا وسألت رفيقى هل زار مدينة أورفيتو Orvieto حيث توجد الكتدرائية المشهورة التى صور على جدرانها الأستاذ . . . . . وهنا نسيت اسم ذلك الأستاذ ، وقفز إلى خاطرى بدلا منه اسم مصورين آخرين هما بوتشيلى Botticelli وبولترافيو Boltraffoi ، عرفت فى الحال أنهما غير مقصودين . وشرعت أبحث عن السبب فى نسيان اسم « سنيوريللى » ،

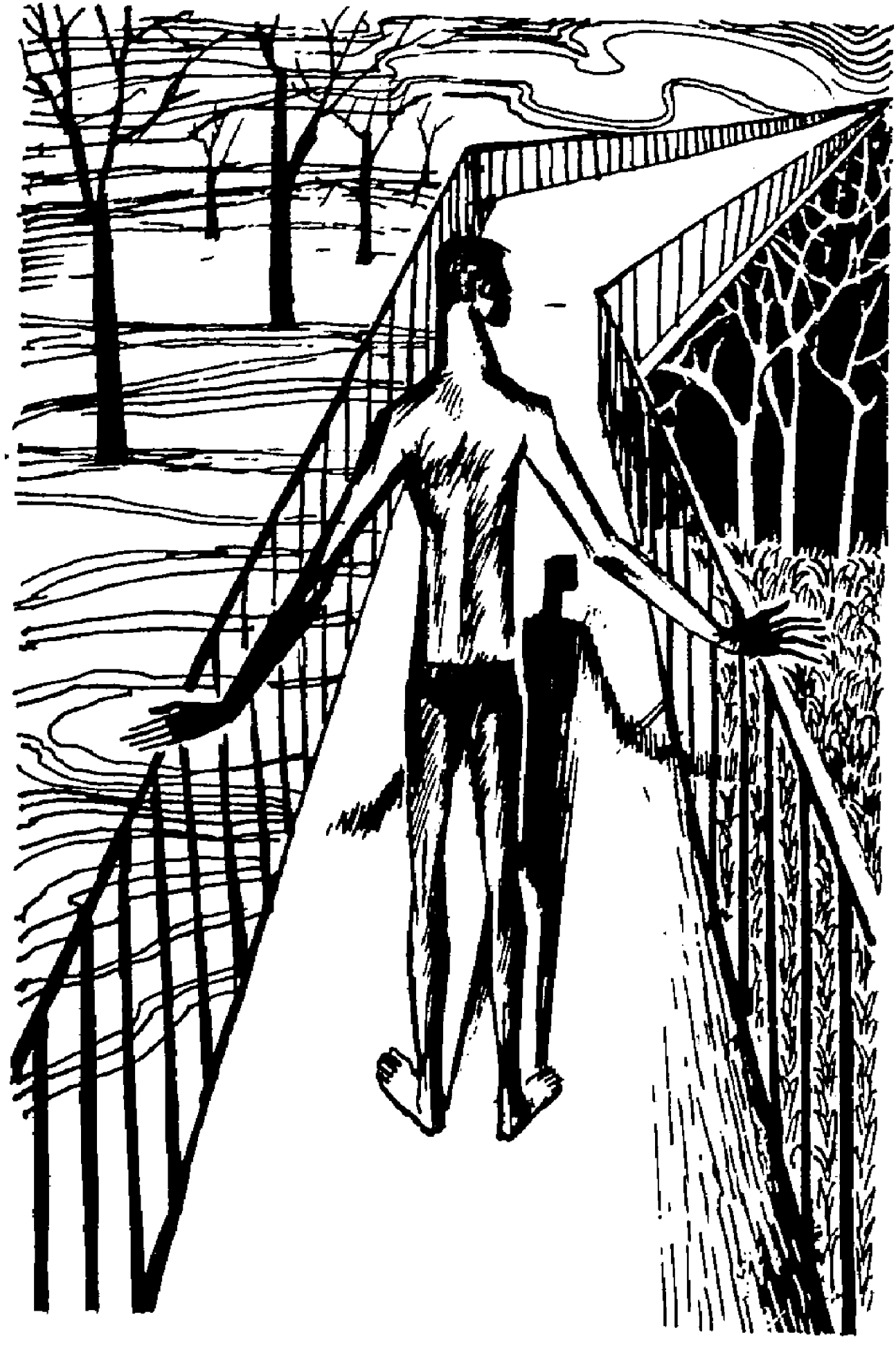

فرأيت أنه نتيجة اضطراب بين موضوع الحديث السابق وبين هذا الحديث . ذلك أنى قبل أن أسأل رفيقى عن زيارته مدينة أورفيتو كنا نتحادث عن عادات الترك الذين يقطنون البوسنة والهرسك ، وقلت لرفيقى ما نقله إلىّ أحد الأصدقاء من أن هؤلاء الأتراك يثقون ثقة عمياء بالطب كما ينفرون نفوراً قوياً من الموت . وذكرت له كذلك قصة أخرى عن انغماس هؤلاء القوم فى الأمور الجنسية ، وأن أحدهم إذا أصيب باضطراب أو ضعف جنسى جزع جزعاً شديداً لا يتلاءم مع نفورهم من الموت . وروى صاحبى ما قاله له أحد المرضى من أن الأمور الجنسية إذا اضطربت فلن تساوى الحياة شيئاً . وعدلت عن هذا الحديث الدقيق الشائك مع رفيق سفر غريب وحولت مجرى الحديث عن كل ما يتصل بالجنسيات والموت . وكنت فى ذلك الوقت واقعاً تحت تأثير حادثة علمت نبأها منذ أسابيع بعد إقامة قصيرة فى مدينة ترافوا Trafoi ذلك أن أحد المرضى الذين كنت أعالجهم انتحر بسبب اضطرابات جنسية لم يشف منها . وعلى الرغم من محاولتى إبعاد الحديث عن الأمور الجنسية من ذهنى ، فإن تلك الحادثة كانت تلح فى الظهور ، عن لاشعور ، وذلك للصلة بين اسم بولترافيو المصور ، واسم المدينة ترافوا . كنت أود نسيان

ما يتصل بتلك المدينة فأدى ذلك إلى « كبت » ذلك الأمر . حقاً لم أكن أرغب فى نسيان اسم المصور الذى صور على حوائط كنيسة أورفيتو ، إلا أن الرابطة بين ذلك الأمر وهذا الاسم أدت إلى نسيان اسم الشخص رغماً عنى على حين أن عزمى كان متجهاً إلى نسيان تلك الحادثة .

وهكذا يمضى فرويد فى تحليل طويل ليبين فيه الصلة بين نسيان أسماء الأعلام وبين حوادث أخرى يريد الإنسان كبتها ودفعها إلى مجاهل النسيان .

وهناك طائفة من الأمثلة يضربها فرويد على نسيان الأسماء وترجع إلى « عقدة شخصية » أى إلى موضوع يتصل بشخصه ويثير فيه انفعالات قوية هى فى الأغلب مؤلمة . والغريب أن الرابطة بين الاسم الذى ينساه فرويد وبين شخصه رابطة لا يتوقعها ، فهى تقوم على تشابه ظاهرى ، فى الرسم أو الصوت أو المعنى . مثال ذلك أن أحد مرضاه طلب منه أن يدله على عين ماء ساخنة فى الرفييرا ، وكان يعرف إحدى هذه العيون ، بل ويعرف كذلك اسم الطبيب الذى يعالج عندها ، ولكنه عجز عن تذكر اسم تلك العين ، فالتمس من المريض الانتظار بعض الشىء حتى يسأل بعض أقاربه . وقيل له كيف تنسى اسم ذلك الطبيب وقد أمضيت عنده زمناً ، إنه يدعى

نرڤى Nervi . ويعلل فرويد نسيان ذلك الاسم بأنه قريب الشبه من لفظة الأعصاب بالألمانية Nerven ؛ والأعصاب والأمراض العصبية هى التى تشغل باله على الدوام .

ويروى « يونج » أن شخصاً كان يحب فتاة ثم تزوجت من شخص آخر غيره ، كان يعرفه من زمن طويل لصلة أعمال بينهما ، فإذا به الآن ينسى اسمه كلما أراد أن ينطق به ؛ وإذا أراد أن يكتب إليه رسالة طلب معرفة اسمه من شخص ثالث .

ولا ريب فى أن مذهب فرويد وأصحاب التحليل النفسانى له وجاهته ، وهو يفسر إلى حد كبير العلة فى نسيان الأسماء والأشياء ، لولا بعض المغالاة التى يتصف بها مذهبه .